موقف الشيعة من الفرق الإسلامية



■ أ. د. ناصر القفاري
n0380@hotmail.com
@prof_algefari

مدخل:

من يقرأ في كتب المعاصرين من الشيعة أو يستمع لما يقوله مراجعهم وشيوخهم عبر إعلامهم وقنواتهم الفضائية يرى أنهم يدعون ويتظاهرون بأن عدوهم الذي يناصبونه العداء من يسمونهم بالطوائف التكفيرية وحدها دون باقي طوائف وفرق الأمة، ويحاولون ما وسعتهم المحاولة أو الحيلة استمالة باقي فرق الأمة، وادعاء أنهم معهم في صف واحد أمام هذه الطوائف التكفيرية، وحيناً يسمونها بالوهابية بغية تشويه سمعة الدعوة الإصلاحية التي قام بها الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1]؛ كل ذلك على سبيل الدعاية المذهبية والمصانعة السياسية والتقية الدينية؛ لأن التقية هي دينهم.

(١) لكشف تلبيسات هؤلاء وأمثالهم، والرد على شبهاتهم التي يثيرونها حول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - يرجع إلى الكتاب القيم: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، للدكتور الشيخ عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف.

لكــن الحقيقة التي يخفونها هي أن كتبهم ومصادر دينهم المعتمدة لديهــم في التلقي طافحة بتكفير كل من عداهم من فرق الأمة، حتى تلك الفرق المعتدلة المنتسبة للتشيع لم تسلم مــن تكفيرهم، بــل واســتحلال دمائهم وأموالهــم؛ لأنهم في اعتقادهم نواصب لم يؤمنوا بالإمامة بحســب مفهومهم، كما ســيأتي بيانه، ولم تسلم من هذا التكفير فرقة من فرق الأمة حتى أولئك المخدوعون بشعار التقريب والوحدة معهم.

المراد بالشيعة:

أعني بالشــيعة هنــا من يتلقى دينه مما يســمونه الكتب الأربعة الأولــى، والكتب الأربعة المتأخرة، وهم أصحاب ولاية الفقيه الخمينية، الذين إذا أطلق لقب الشــيعة في عصرنا لا ينصرف إلا إليهم في رأي جمع من الباحثين[1]، ومن ســواهم زيدية[2] أو إسماعيلية[3].

قولهم في الفرق الإسلامية:

ينقل شيخهم المفيد - في كتابه «أوائل المقالات» الذي يعده المعاصرون من شيوخهم عمدة في بيان اعتقادهم[4] - إجماعهم على تكفير الفرق الإســلامية كلها وأنها من أهل النار جميعاً، حيــث يقول: «اتفقــت الإمامية على أن أصحــاب البدع كلهم كفار.. ومن مات منهم على تلك البدعة فهو من أهل النار»[5]. ويعنــي بأهل البدع كل من خالفهــم في عدد الأئمة وأعيانهم ولو كانوا من شيعتهم، أي من الفرق المنتسبة للتشيع.

وقد عقد شــيخهم المجلسي في كتابه بحار الأنوار (الذي يعده المعاصــرون المرجع الوحيد لتحقيــق معارف المذهب)[6] باباً في هذا الشــأن بعنوان «باب كفر المخالفين والنصاب»[7]، وعــد كل من لم يؤمــن بإمامة واحد من الأئمة الاثني عشــر في عداد المشــركين، كما وصفهم شــيخهم ابن بابويه القمي أحــد مصنفي كتبهم الأربعة بأنهم ظلمة ملعونون، فقال: «من ادعــى الإمامة وليس بإمــام فهو الظالم الملعــون، ومن وضع الإمامة في غير أهلها فهو ظالم ملعون...»[8]. ولذلك جاء في كتبهــم المعتمــدة لديهم في التلقي: «ثلاثــة لا ينظر الله إليهم يــوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: من ادعى إمامة من الله ليســت له، ومن جحد إماماً من الله، ومن زعم أن لهما[9] في الإسلام نصيباً»[10].

فهــذا تكفير للأمة شــنيع لــم يبلغ الخــوارج مبلغه، وهو تكفيــر للأحيــاء والأمــوات، وحقد عظيم على أمة الإســلام وخلفاء المســلمين؛ فقولــه: «من ادعى إمامة من الله ليســت له» حكم على جميع أئمة المســلمين وحكامهم وأمرائهم بأنهم ظلمة وملعونون؛ لأن الإمامة في اعتقادهم محصورة في اثني عشــر إماماً. وقولــه: «ومن جحد إماماً مــن الله» تكفير لكل من بايع خليفة أو أميراً أو حاكماً أو رئيســاً أو رضي ببيعتهم وحكمهم، وهذا يشمل جميع المسلمين من لدن الصحابة الذين بايعوا الخلفاء الراشدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فهم لم يبقوا من فرق المســلمين أحداً ســوى من قال بإمامة أئمتهم، بل اعتبروا المخالفين لهم من المســلمين أشد شرّاً من اليهود والنصارى.

يقول ابــن المطهر الحلي الذي يلقبونه بالعلامة: «الإمامة لطــف عام والنبوة لطف خاص، لإمــكان خلو الزمان من نبي حي بخلاف الإمام، وإنكار اللطف العام شر من إنكار اللطف الخاص»[11].

ولقــد بلغ بهم الأمر أن أعلنــوا المفاصلة الكاملة والبراءة الشاملة لكل فرقة من فرق المسلمين اعتقدت بشرعية خلافة الخليفتــين العظيمين أبي بكــر وعمر اللذين أقــام الله بهما دينــه وحفظ شــريعته، وفتح اللــه على أيديهمــا بلاد هؤلاء المجوس، ومن المعلوم أن جميع الفرق الإســلامية تثبت خلافة الشــيخين، فتبرأوا منها جميعاً، فقالوا على لســان شــيخهم

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية (١٤/ ٦٨)، مستدرك الوسائل (٣/ ٣١١)، روح الإسلام لأمير علي (٢/ ٩٢)، أصل الشيعة وأصولها (ص٩٢)، الشيعة في التاريخ للعاملي (ص٤٣)، الغلو والفرق الغالية (ص٨٢)، أصول الدين وفروعه عند الشيعة لأحمد زكي تفاحة (ص٢١)، الشيعة والتشيع لإحسان إلهي ظهير (ص٩)، مجلة كلية الدراسات الإسلامية (العدد الأول، ١٣٨٧هـ، ص٣٥).

(٢) الزيدية هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وسموا بالزيدية نسبة إليه، وقد افترقوا عن الإمامية الرافضة حينما سئل زيد عن أبي بكر وعمر فترضى عنهما فرفضه قوم، فسموا رافضة لرفضهم إياه، وسمي من لم يرفضه من الشيعة زيدية لانتسابهم إليه، وذلك في آخر خلافة هشام سنة إحدى وعشرين أو اثنتين وعشرين ومائة. (انظر: الرسالة الوازعة، يحيى بن حمزة اليمني ص٢٨، مقالات الإسلاميين ١/ ١٣٦، الملل والنحل ١/ ١٥٤).

(٣) الإسماعيلية هم الذين قالوا: الإمام بعد جعفر إسماعيل بن جعفر، وادعوا أن جعفراً أشار إليه في حياته، ودل الشيعة عليه، ثم قالوا بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر من بعده، وأنكروا إمامة سائر ولد جعفر. (انظر: الزينة للرازي ص٢٨٧ ضمن كتاب الغلو والفرق الغالية، فرق الشيعة للنوبختي ص١٤٨، الفرق بين الفرق ص٦٢، ٦٣).

(٤) ذكر ذلك شيخهم محمد جواد مغنية رئيس المحكمة الجعفرية ببيروت، وذلك في كتابه «الشيعة في الميزان» (ص١٤).

(٥) أوائل المقالات ٥٣.

(٦) انظر: مقدمة البحار ١٩.

(٧) بحار الأنوار (٧٢/ ١٣٢).

(٨) الاعتقادات لابن بابويه ١١١، وانظر: البحار للمجلسي (٢٧/ ٦٢).

(٩) يعنون بهما اللذين أقاما دولة الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم ونشرا دينه، الخليفتين الراشدين أبا بكر وعمر.

(١٠) الكافي، كتاب الحجة، باب من ادعى الإمامة وليس لها بأهل إلخ (١/ ٣٧٣)، وانظر: تفسير العياشي (١/ ١٧٨)، تفسير البرهان (١/ ٢٩٣)، البحار (٨/ ٢١٨).

(١١) الألفين لابن مطهر (ص٣).

نعمة الله الجزائري: «لم نجتمع معهم [يعني الأشعرية] على إلـه، ولا على نبي، ولا علـى إمام، ذلك أنهم يقولون: إن ربهم هو الذي كان محمد ﷺ نبيه وخليفته أبو بكر، ونحن لا نقول بهـذا الرب، ولا بذلك النبـي، بل نقول: إن الرب الذي خليفة نبيـه أبو بكر ليس ربنا، ولا ذلك النبي نبينا»[1]. ويقول أيضاً: «الأشـاعرة لم يعرفـوا ربهم بوجه صحيح، بـل عرفوه بوجه غيـر صحيح، فلا فرق بين معرفتهم هـذه وبين معرفة باقي الكفار... فالأشـاعرة ومتابعوهم أسـوأ حالاً في باب معرفة الصانع من المشركين والنصارى... فمعرفتهم له سبحانه على هذا الوجـه الباطل من جملة الأسـباب التي أورثت خلودهم في النار مع إخوانهم من الكفار»[2]. وقال شيخهم المازندراني: «المـراد بالقدريـة والمجوس فيما روي عنـه - صلى الله عليه وآلـه - قـال: (القدريـة مجوس هـذه الأمة) هم الأشـاعرة وغيرهم من القائلين بالجبر»[3].

وكذلك لم يسـلم التصوف والصوفية من طعنهم وذمهم، سـواء معتدلها ومتطرفها، فنسبوا إلى النبي ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم من أمتي اسمهم صوفية، ليسوا منـي وإنهم يهود أمتـي... إلى أن قال: هـم أضل من الكفار وهم أهل النار»[4]. ويقول شـيخهم الحـر العاملي: «لا يوجد للتصوف وأهله في كتب الشيعة وكلام الأئمة -عليهم السلام - ذكر إلا بالذم، وقد صنفوا في الرد عليهم كتباً متعددة»[5].

ولـم يتركـوا طائفة من طوائف الأمـة ولا فرقة من فرق المسـلمين إلا وكفروهـم ولعنوهـم سـواء أكانـوا أهـل حق، كتكفيرهـم ولعنهم لأهل السـنة الذيـن يلقبونهـم بالمرجئة، أم كانـوا مـن المبتدعة الضالـين كلعنهم وتكفيرهـم للقدرية والخوارج؛ جاء في الكافي «عن أبي مسـروق قال: سـألني أبو عبد اللـه عن أهل البصرة ما هم؟ فقلـت: مرجئة وقدرية[6] وحروريـة. فقال: لعـن الله تلك الملـل الكافرة المشـركة»[7]، ولكنهم يخصون أهل السنة والجماعة؛ لأنهم أهل الحق بمزيد من لعنهم وتكفيرهم.

جاء فـي الكافي: «اللهم العن المرجئـة فهم أعداؤنا في الدنيا والآخرة»[8]. ويكشـف شـيخهم المجلسـي شيخ الدولة الصفوية مرادهم بهذا النص بلا تقية أو مواربة حيث يصرح بـأن «المراد بالإرجاء هنا تأخيـر علي عن الدرجة الأولى إلى الدرجـة الرابعة»[9]. يعني من لم يؤمـن بأن عليّاً هو الخليفة الأول لرسـول الله ﷺ وقدم عليه أبـا بكر ثم عمر ثم عثمان فهـو مرجئ عندهم، والإرجـاء في اللغة هـو التأخير، فهذا تكفير لعموم المسـلمين، ثم امتـد لعنهم وتكفيرهم إلى أموات المسـلمين، يقول المجلسـي: «لا تجوز الصـلاة على المخالف لجبر أو تشـبيه[10]، أو اعتزال أو خارجية، أو إنكار إمامة، إلا للتقية، فإن فعل (يعني صلى عليه تقية) لعنه بعد الرابعة»[11].

ويمتـد تكفيرهـم أيضاً ليشـمل فرقاً هي مـن طوائفهم تنتمي إلى التشـيع مثلهم، سوى أنهم يخالفونهم إما في عدد الأئمـة أو أعيانهـم، فتتوالى عليهم لعناتهـم، وتتعاقب عليهم كلمات التكفير والمعاداة، ولذلك فإن شيخهم مير باقر الداماد يفسـر حديث «افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» بفرق الشيعة، ويقرر أن الناجية منها طائفته الإماميـة[12]، أمـا أهل السـنة والمعتزلة والمرجئـة والخوارج وغيرهم من سـائر فرق المسـلمين فجعلهم مـن أمة الدعوة، أي ليسـوا مـن أمة الإجابة، فهم لم يدخلـوا في اعتقاده في الإسلام أصلاً[13].

بـل إنهم يخصـون جملة من هذه الفرق الشـيعية بلعنهم وتكفيرهم، ويكفي أن تعرف أن الزيدية وهي من فرق الشيعة خصوها بالتكفير في نصوص كثيرة، وفي عدد من مصادرهم المعتمـدة، ربما لأنهم أقرب فرق الشـيعة لأهل السـنة، ولذا أخرجوهم من التشيع وعدوهم من النواصب، جاء في الكشي (عمـدة مصادرهـم في الرجـال): «عن عمر بـن يزيد قال: سـألت أبا عبد الله عن الصدقة على الناصب وعلى الزيدية قال: لا تصدق عليهم بشيء، ولا تسقهم من الماء إن استطعت. وقال لي: الزيدية هم النصاب»[14].

وفـي الكافي (عمدة كتبهم): «عن عبد الله بن المغيرة قال: قلت لأبي الحسـن - رضي الله عنه -: إن لي جارين أحدهما

(١) الأنوار النعمانية (٢/ ٢٧٩).
(٢) الأنوار النعمانية (٢/ ٢٧٨).
(٣) شرح أصول الكافي (٥/ ١١).
(٤) الاثنا عشرية في الرد على الصوفية (ص١٨).
(٥) الاثنا عشرية في الرد على الصوفية (ص١٣)، وقد ذكر محقق الكتاب منها ثمانية عشر كتاباً صنفوها في الرد عليهم.
(٦) صارت الشيعة قدرية فيما بعد فاللعن يشملهم.
(٧) أصول الكافي (٢/ ٣٨٧، ٤٠٩).
(٨) فروع الكافي (مع شرحه مرآة العقول) (٤/ ٣٧١).
(٩) مرآة العقول للمجلسي (٤/ ٣٧١).
(١٠) أوائل الشيعة كانوا جبرية في باب القدر، مشبهة في باب الصفات، ثم جنحوا لطريقة الاعتزال في هذا الباب بعد المائة الثالثة.
(١١) ينظر: جمال الدين الأفغاني: التعليقات على شرح الدواني (ضمن كتاب الأعمال الكاملة للأفغاني دراسة وتحقيق محمد عمارة ١/ ٢١٥).
(١٢) المصدر السابق.
(١٣) مرآة العقول (٤/ ٧١-٧٣).
(١٤) رجال الكشي ١٩٩، بحار الأنوار (٧٢/ ١٧٩).

ناصبي، والآخر زيدي، ولا بد من معاشرتهما فمن أعاشر؟ فقال: هما سيان، من كذب بآية من كتاب الله فقد نبذ الإسلام وراء ظهره، وهو المكذب بجميع القرآن والأنبياء والمرسلين، ثم قال: إن هذا نصب لك، وهذا زيدي نصب لنا»[١].

وقال المجلسي: «كتب أخبارنا مشحونة بالأخبار الدالة على كفر الزيدية وأمثالهم من الفطحية والواقفة»[٢]. والفطحية والواقفة أيضاً من فرق الشيعة، لكنهم خالفوا الإثنى عشرية في عدد الأئمة وأعيانهم، فدخلوا في دائرة اللعن والتكفير.

فهذا حكمهم على فرق الشيعة فما بالك بمن دونهم! حتى إنهم يعدون المخالف لهم في دعواهم وجود المهدي الخرافة، وعدم البيعة لهذا الغائب الموهوم أو عدم الاعتقاد بأنه هو الحاكم الفعلي اليوم على المسلمين، يعدونه في مرتبة في الكفر مثل إبليس[٣].

بل إن مجرد محبة أبي بكر وعمر هي عندهم من الكفر، فكفَّروا بذلك المسلمين جميعاً، جاء في البحار: «عن أبي علي الخرساني، عن مولى لعلي بن الحسين - عليه السلام - قال: كنت معه - عليه السلام - في بعض خلواته فقلت: إن لي عليك حقّاً ألا تخبرني عن هذين الرجلين: عن أبي بكر وعمر؟ فقال: كافران، كافر من أحبهما»[٤]. هكذا ينسبون معتقدهم الباطل إلى الإمام علي بن الحسين، وهو - كسائر الأئمة - براء مما ينسبه هؤلاء الروافض إليه[٥].

ويظهر أن موجة التكفير للصحابة والقرابة التي سادت نصوصهم وسودت كتبهم قد كان من عقوباتها وآثارها ظهور حالة التنافر والتنابذ والتنابز والتلاعن والتلاحي والتبري بين فرقهم وأفرادهم، كأنها عقوبة مثلية جزاء وفاقاً؛ فهؤلاء الذين أطلقوا ألسنتهم في خير الصحابة ومن دونهم من عموم المسلمين ارتدت سهام ألسنتهم إليهم؛ استمع إلى ما يرويه الكشي ويوافقه عليه شيخ طائفتهم الطوسي[٦] عن حال أوائل أصحابهم (الخلص) من تبري بعضهم من بعض، ورمي بعضهم لبعض بالزندقة والكفر، حيث يقول في روايته بأنه في سنة ١٩٠هـ اجتمع ستة عشر رجلاً في باب الحسن الثاني، فقال له أحدهم - ويدعى جعفر بن عيسى -: يا سيدي نشكو إلى الله وإليك[٧] ما نحن فيه من أصحابنا، فقال: وما أنتم فيه منهم؟ فقال جعفر: هم والله يزندقونا ويكفرونا ويتبرؤون منا. فقال: هكذا أصحاب علي بن الحسين، ومحمد بن علي، وأصحاب جعفر، وموسى - صلوات الله عليهم -، ولقد كان أصحاب زرارة يكفرون غيرهم، وكذلك غيرهم كانوا يكفرونهم. وقال: جعلت فداك إنهم يزعمون أنا زنادقة[٨].

هذا حال رعيلهم الأول فكيف بمن بعدهم؟ يقول العالم العراقي المعاصر محمود الملاح: «في عصرنا هذا نجد الإثنى عشرية منقسمة إلى أصولية وأخبارية وشيخية وكشفية وركنية وكريمخانية وقزلباشية»[٩]، وكلها داخلة في المجموعة الإثنى عشرية وهي بعد هذا يكفر بعضها بعضاً[١٠].

ولقد بلغ الصراع والعداء والتبري في عصرنا بين أهم فرق الإثنى عشرية، وهما الأصولية والأخبارية، أن كفر بعضهم بعضاً، ولعن بعضهم بعضاً، وتبرأ بعضهم من بعض، حتى إن من شيوخ طائفة الأخبارية من لا يلمس مؤلفات الأصوليين بيده تحاشياً من نجاستها، وإنما يقبضها من وراء ملابسه[١١]، ويفتي بعضهم بتحريم الصلاة خلف البعض الآخر[١٢]، ويتقاذفون تهم الزندقة والتكفير فيما بينهم[١٣].

وهذا شأن المخالفين، حتى ذكر عبد القاهر البغدادي أن «سبعة من القدرية اجتمعوا في مجلس وافترقوا عن تكفير كل واحد منهم لسائرهم»[١٤]. لكن الرافضة لهم في تكفير الآخرين وتكفير بعضهم بعضاً النصيب الأوفى كحال المغضوب عليهم والضالين الذين قال الله فيهم: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ**﴾ [**البقرة**: ١١٣].

(١) الكافي «كتاب الروضة» (١٢/ ٣٠٤) (مع شرحه للمازندراني)، مفتاح الكتب الأربعة (٨/ ٧٦).
(٢) بحار الأنوار (٣٧/ ٣٤).
(٣) انظر: إكمال الدين لابن بابويه (ص١٣).
(٤) بحار الأنوار (٧٢/ ١٣٧-١٣٨).
(٥) قال أبوحازم المدني: ما رأيت هاشميّاً أفقه من علي بن الحسين، سمعته وقد سئل: كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ فأشار بيده إلى القبر، ثم قال: بمنزلتها منه الساعة (سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٩٤)، وينظر للاستزادة كتابنا: زبور آل محمد (ص٣٤-٣٦).
(٦) لأن كتاب «رجال الكشي» الموجود بأيدي الشيعة اليوم من اختياره وتهذيبه، أما الأصل الذي وضعه الكشي فقد فُقِد كما يقولون.
(٧) هذا التعبير من الألفاظ المنهي عنها؛ لأنه يقتضي التسوية بين الخالق والمخلوق، فهو نوع من الشرك (الأصغر)، ولذا يجب أن يقول: «نشكوا إلى الله ثم إليك»، وضلال هؤلاء - أعني الروافض - في الشرك الأكبر أعظم من ذلك، ولكن هذا تنبيه للقارئ.
(٨) رجال الكشي (ص٤٩٨-٤٩٩).
(٩) في أصول الشيعة (١/ ١١١)، وما بعدها تعريف موجز بهذه الفرق.
(١٠) الآراء الصريحة، لمحمود الملاح (ص٨١).
(١١) الشيخية لمحمد آل المطلقاني (ص٩).
(١٢) انظر: مع علماء النجف لمحمد جواد (ص٧٤).
(١٣) انظر: أصول الشيعة (١/ ١١٨).
(١٤) الفرق بين الفرق (ص١٨٥).